
يا
ليل
يا
عين
قصة توفيق حنا
رسوم علي المندلاوي


كَانَ يَا مَا كَان. صَيَّادٌ فَقِيرٌ يَعِيشُ وَحِيداً فِي كُوخٍ مُجَاوِرٍ
لِلْبَحْرِ. يَسْتَيْقِظُ فِي الْفَجْرِ، يُلْقِي شَبَكَتَهُ، وَيَنْتَظِرُ رِزْقَهُ.

وَفِي آخِرِ النَّهَارِ، يَذْهَبُ بِصَيْدِهِ إِلَى السُّوقِ يَبِيعُهُ وَيَعُودُ إِلَى كُوخِهِ سَعِيداً، يَتَنَاوَلُ طَعَامَهُ، وَيَشْرَبُ شَايَهُ، وَيَنْفُخُ نَايَهُ، صَدِيقَهُ الْوَحِيدَ فِي الدُّنْيَا.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، أَلْقَى الصَّيَّادُ شَبَكَتَهُ عِنْدَ الْفَجْرِ. وَبَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ أَخْرَجَهَا فَارِغَةً. وَأَلْقَاهَا مَرَّةً أُخْرَى، إِلَّا أَنَّهَا خَرَجَتْ أَيْضاً فَارِغَةً.



وَفِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ، أَحَسَّ أَنَّهَا ثَقِيلَةٌ ثَقِيلَةٌ. وَبِجُهْدٍ أَخَذَ يَسْحَبُهَا فِي بطْءٍ. وَعِنْدَمَا لَامَسَتِ الشَّبَكَةُ شَاطِئَ الْبَحْرِ، فُوجِئَ الصَّيَّادُ بِشَابٍّ جَمِيلِ الْوَجْهِ، فِي ثَوْبٍ أَبْيَضَ، يَتَحَزَّمُ بِحِزَامٍ أَزْرَق.

ذُهِلَ الصَّيَّادُ، وَقَبْلَ أَنْ يُفِيقَ مِنْ ذُهُولِهِ، سَمِعَ الشَّابَّ يَقُولُ لَهُ:

– «لَا تَخَفْ. إِسْمِي «لَيْلْ»، وَأَنَا إِبْنُ سُلْطَانِ الْبَحْرِ، كُنْتُ أَعِيشُ تَحْتَ الْمَاءِ، وَلَكِنَّ قَلْبِي كَانَ يَشْتَاقُ دَائِمًا إِلَى أَنْ أَرَى النَّاسَ وَبِلَادَ النَّاسِ. كَانَ الشَّوْقُ وَحُبُّ الإِسْتِطْلَاعِ يَفِيضَانِ بِي إِلَى سَطْحِ الْأَرْضِ لِأَرَى وَأَسْمَعَ وَأَفْهَمَ وَأَعْرِفَ».

وَسَكَتَ ثُمَّ قَالَ: «وَعِنْدَمَا أَلْقَيْتَ الْيَوْمَ شَبَكَتَكَ، تَعَلَّقْتُ بِهَا لِكَيْ أَخْرُجَ. وَأَنَا لَا أَطْلُبُ مِنْكَ يَا صَاحِبِي شَيْئاً، إِلَّا أَنْ نَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ. وَرَفِيقَيْ سَفَرٍ إِلَى كُلِّ بِلَادِ الدُّنْيَا، نَتَفَرَّجُ عَلَى النَّاسِ وَمَا يَفْعَلُ النَّاسُ».

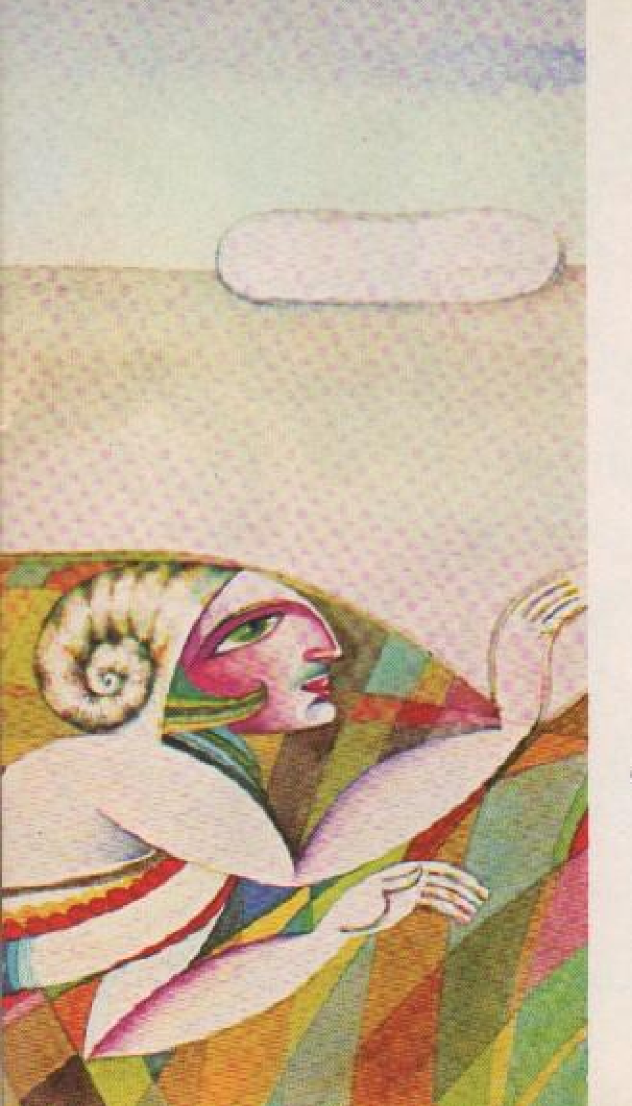
ثُمَّ أَخَذَ يَنْظُرُ إِلَى الصَّيَّادِ، وَقَالَ: «هَلُمَّ بِنَا يَا صَاحِبِي نُقْسِمُ عَلَى عَهْدِ الْوَفَاءِ، أَنْ نَظَلَّ مَعاً، وَأَلَّا يَتَخَلَّى أَحَدُنَا عَنِ الْآخَرِ إِلَى الْأَبَدِ».

ثُمَّ أَمْسَكَ بِيَدِ الصَّيَّادِ بِقُوَّةٍ وَهُوَ يُرَدِّدُ: «أَمَّا إِنْ خُنْتَ عَهْدِي، وَتَخَلَّيْتَ عَنْ وَاجِبَاتِ الصَّدَاقَةِ، فَسَوْفَ أَعُودُ إِلَى الْبَحْرِ، وَلَا تَرَى وَجْهِي بَعْدَهَا أَبَداً. لَنْ تَرَانِي مَهْمَا بَحَثْتَ أَوْ غُصْتَ أَوْ فَتَّشْتَ».

وَهَزَّ يَدَهُ بِقُوَّةٍ قَائِلًا: «هَلْ تُقْسِمُ؟»

وَأَقْسَمَ الصَّيَّادُ عَلَى عَهْدِ الْوَفَاءِ.

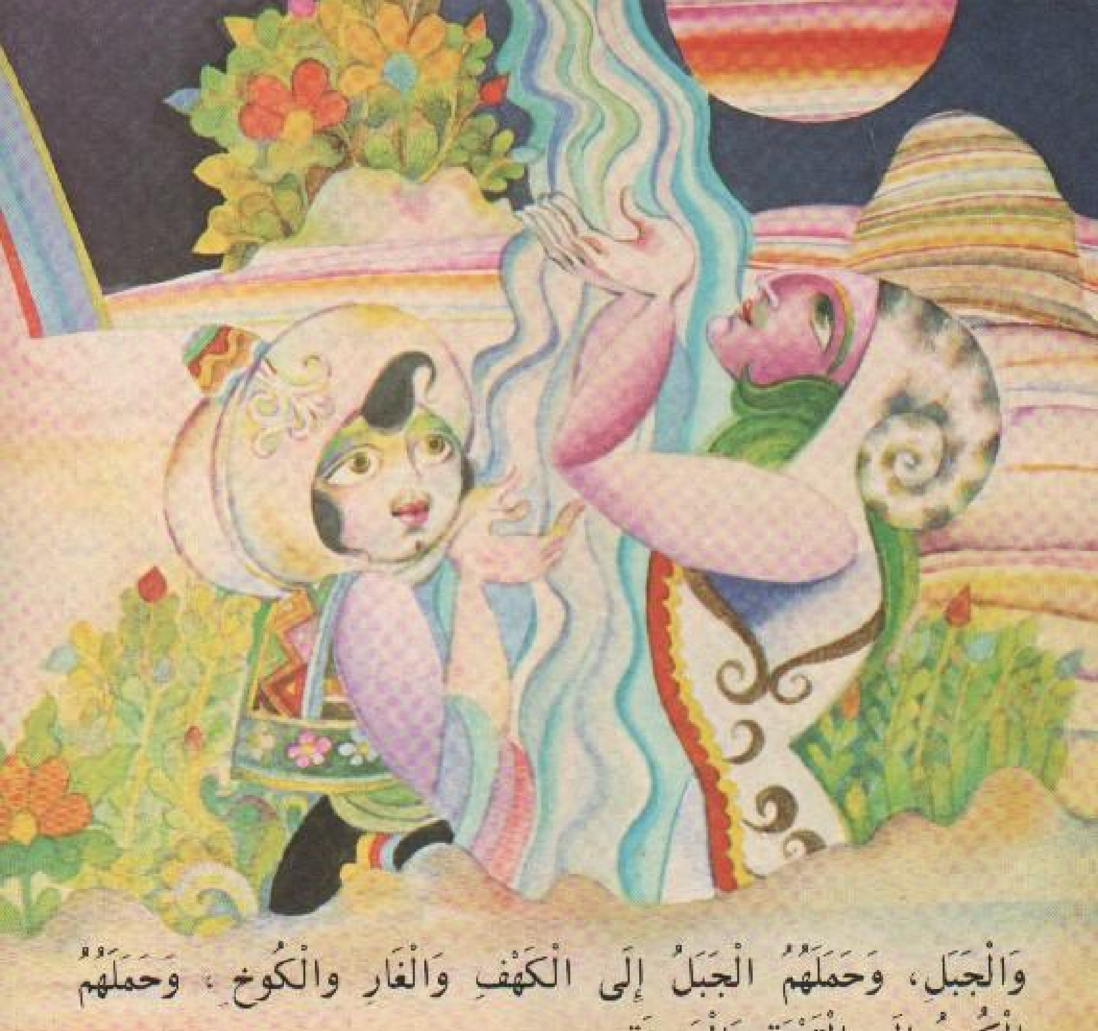
وَغَمَرَتْهُ السَّعَادَةُ، فَمَنْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُسَافِرَ وَيَلُفَّ الْأَرْضَ، مَعَ الْأَمِيرِ لَيْلٍ إِبْنِ سُلْطَانِ الْبَحْرِ؟!



كَانَ الصَّيَّادُ فَخُوراً، لِأَنَّ الْأَمِيرَ خَصَّهُ بِوُدِّهِ وَصَدَاقَتِهِ. وَسَعِيداً، لِأَنَّهُ سَيَقُومُ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الرَّائِعَةِ. وَعَاهَدَ نَفْسَهُ أَنْ يَظَلَّ لَهُ الصَّدِيقَ الْوَفِيَّ، الَّذِي لَا يَخُونُ وَلَا يَتَخَلَّى عَنْهُ مَهْمَا حَدَثَ، وَلَا يَنْقُضُ لَهُ عَهْداً أَبَداً.

وَمَعاً خَرَجَا يَسِيحَانِ فِي الْأَرْضِ، تَحْمِلُهُمْ أَقْدَامُهُمْ إِلَى بِلَادِ اللهِ وَخَلْقِ اللهِ.

شَاهَدَا الْبَحْرَ وَالصَّحْرَاءَ، وَحَمَلَتْهُمُ الْغَابَةُ إِلَى السَّهْلِ



وَالْجَبَلِ، وَحَمَلَهُمُ الْجَبَلُ إِلَى الْكَهْفِ وَالْغَارِ وَالْكُوخِ، وَحَمَلَهُمُ الْكُوخُ إِلَى الْقَرْيَةِ وَالْمَدِينَةِ.

إغْتَسَلَا فِي النَّهْرِ، وَصَعَدا إِلَى الْقِمَّةِ الْمُتَعَمِّمَةِ بِالثَّلْجِ الأَبْيَضِ. قَابَلَا الْبَشَرَ مِنْ كُلِّ الأَجْنَاسِ، وَتَحَدَّثَا بِكُلِّ اللُّغَاتِ. وَسَمِعَا أَغَارِيدَ الطَّيْرِ، وَوَشْوَشَاتِ النَّحْلِ إِلَى الزَّهْرِ.

وَأَخِيراً هَبَطَا، فِي مَدِينَةٍ جَمِيلَةٍ. سَمِعَا أَنَّ سُلْطَانَهَا رَجُلٌ عَادِلٌ، وَأَنَّ لَهُ إِبْنَةً رَائِعَةَ الْجَمَالِ، وَأَنَّ إِسْمَهَا «عَيْنٌ»، وَعَلِمُوا أَنَّ عَيْناً تَرْفُضُ كُلَّ خُطَّابِهَا، لِأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ رَجُلٍ مُخْلِصٍ، هُوَ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَالْقُدْوَةُ فِي الْوَفَاءِ وَالإِخْلَاصِ.



وَتعوّدَتْ عَيْنٌ أَنْ تَخْرُجَ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَرَاءَ حُلْمِهَا عَنِ الْوَفَاءِ وَالْوَفِيِّ الَّذِي لَا يَخُونُ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ، بَيْنَمَا كَانَ الصَّيَّادُ جَالِساً قُرْبَ الشَّاطِئِ يَحْرُسُ صَدِيقَهُ النَّائِمَ، وَهُوَ يَعْزِفُ بِنَايِهِ احْلَى أَلْحَانِهِ عَنِ الصَّدَاقَةِ وَوَفَاءِ الصَّدِيقِ، إِذْ ظَهَرَتْ عَيْنٌ.

كَانَتْ عَيْنٌ قَدْ سَمِعَتْ عَنْ حِكَايَةِ الصَّيَّادِ وَوَفَائِهِ. وَرَقَّ لَهُ قَلْبُهَا، وَتَعَلَّقَتْ بِوَفَائِهِ وَتَقَدَّمَتْ عَيْنٌ مِنَ الصَّيَّادِ، وَكَشَفَتْ لَهُ عَنْ نَفْسِهَا، وَأَعْلَنَتْ عَنْ حُبِّهَا.

قَالَتْ لَهُ: «أَنْتَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ أَتَزَوَّجَهُ».

قَالَ لَهَا: «بَيْنِي وَبَيْنَ لَيْلٍ عَهْدٌ عَلَى الإِخْلَاصِ وَالْوَفَاءِ. وَعَهْدِي مَعَهُ أَلَّا أَتْرُكَهُ أَبَداً.»

قَالَتْ لَهُ: « مَعِي لَنْ تَعْرِفَ الشَّقَاءَ، أَيَّامُكَ كُلُّهَا سَتَكُونُ سَعْداً وَهَنَاءَةً. لَنْ تَعْرِفَ فِي حَيَاتِكَ التَّعَبَ وَالْفَقْرَ وَالْجُوعَ وَالشَّقَاءَ. قَصْرُنَا مَبْنِيٌّ بِطُوبَةٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَطُوبَةٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَمَعِي سَتَغْسِلُ عَنْكَ كُلَّ الأَحْزَانِ ».

ظَلَّتْ عَيْنٌ تُغْرِي الصَّيَّادَ، والصَّيَّادُ المِسْكِينُ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْعَهْدِ، إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ ثِقْلِ الإِغْرَاءِ، ضَعُفَ وَلَانَ، وَسَقَطَ فِي أَصْعَبِ إمْتِحَانٍ.

وَحِينَمَا قَالَ الصَّيَّادُ لِعَيْنٍ: « إِنَّنِي أَقْبَلُ الزَّوَاجَ »، أَحَسَّ أَنَّهُ سَقَطَ فِي بِئْرٍ عَمِيقَةٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ.

وَحَوْلَهُ لَمْ يَجِدْ أَحَداً. لَا لَيْلَ وَلَا عَيْنَ. لَا شَيْءَ بِالْمَرَّةِ.

لَقَدْ عَادَ لَيْلٌ إِلَى الْبَحْرِ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ خَانَهُ. لَنْ يَرْجِعَ ثَانِيَةً إِلَى أَرْضِ الْبَشَرِ.

وَعَادَتْ عَيْنٌ تَبْحَثُ عَنْ رَجُلٍ وَفِيٍّ لَا يَخُونُ الْعَهْدَ.





وَمِنْ يَوْمِهَا
وَالصَّيَّادُ يَهِيمُ عَلَى
وَجْهِهِ، وَهُوَ يُنَادِي:
«يَا لَيلْ، يَا عَيِنْ»
وَلاَ أَحَدَ يُجِيبُ.

تضمّ هذه السلسلة مجموعة حكايات معبّرة، أبطالها من الطيور والحيوانات والأطفال، مكتوبة بأسلوب مشوّق ومزدانة بلوحات فنيّة تساعد على توضيح أحداثها.

صدر من هذه السلسلة:

١ - الشجرة
٢ - الفيل يجد عملا
٣ - بديع الزمان
٤ - القفص الذهبي
٥ - الحمامة البيضاء
٦ - جزيرة الضياع
٧ - عودة الطائر
٨ - السلحفاة الحكيمة
٩ - ندم حصان
١٠ - بيت للورقة البيضاء
١١ - وحيد القرن والعصافير
١٢ - الفيل في الصحراء
١٣ - نرجس
١٤ - الريش الجميل
١٥ - الطفل والمطر
١٦ - القط الكسلان
١٧ - الشراع الأبيض
١٨ - الجراد في المدينة

الطبعة الاولى ١٩٧٥
الطبعة الثانية ١٩٧٧
الطبعة الثالثة ١٩٨٢

١٩ - صيام الثعلب
٢٠ - الفأر والجبل
٢١ - الفلاح والتنين
٢٢ - الصياد وديك الحجل
٢٣ - القمر والصغار
٢٤ - ضجر السلطان

الطبعة الاولى ١٩٧٧
الطبعة الثانية ١٩٨٢

٢٥ - الغضب
٢٦ - غزال محب للاسئلة
٢٧ - جواد الارض الخضراء
٢٨ - البلبل الصغير الشريد
٢٩ - حصان العم رضوان
٣٠ - رحلة الدجاجة الذكية

الطبعة الاولى ١٩٨٠
الطبعة الثانية ١٩٨٢

٣١ - الفأس
٣٢ - السلطان والقمر
٣٣ - مدينة الألوان
٣٤ - عصفور الجنة

الطبعة الاولى ١٩٨١

٣٥ - أمنيات ليالي جميلة
٣٦ - في المدرسة
٣٧ - القطة الصغيرة
٣٨ - الأرنب الشارد
٣٩ - حسن والغول
٤٠ - ياليل ياعين

الطبعة الاولى ١٩٨٢

طباعة: مؤسسة دار الريحاني – هاتف ٨١٤٨٨٨ – ص.ب ٥٣٧٨ / ١٣



دار الفتى العربي
للنشر والتوزيع
كورنيش المزرعة ـ بناية الجزيرة ـ ص ب ٥٢٣٦ / ١٤ بيروت ـ لبنان